

المحاضرة الثالثة

تَغْرِيبُ الْعُلُومِ الصَّحِيَّةِ ضَرُورَةٌ
حَضَارِيَّة

الدكتور أحمد شيخ السروجية
أستاذ مشارك في قسم الجراحة العامة والغدد
الصماء
كلية الطب - الجامعة الأردنية

السبت 22 شوال 1409 هـ الموافق 27 أيار 1989م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن اللغة مهمة جداً في تطور الأمة لا بل البشرية جمعاء. وهي من أهم العوامل التي تؤلف المجتمعات لتتكون منها الأمم والشعوب. فقد قال الرسول الأعظم "أيها الناس: الرب واحد والأب واحد وأن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب أو أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي".

إن العودة إلى البدايات الحضارية تبين لنا أن الحضارات التي استمرت أو كان لها تأثير بالغ في التاريخ الإنساني هي حضارات معدودة. ولعل اندثار اللغات العربية القديمة كان من العوامل المهمة في التقليل من شأن حضارات البلاد العربية، وجعل اعتماد الحضارات المتأخرة عليها مبتوراً.

إن الحضارة التي نعيش في كنفها الآن، شئنا أم أبينا، هي الحضارة الغربية التي أعطيت نقطة بداية في عصر النهضة الأوروبية الحديثة. وهي كباقي الحضارات لها امتداد في التاريخ، إذ لا يمكن أن تبدأ حضارة من فراغ. ومن الحقائق التاريخية التي لا يستطيع أحد نكرانها، هي أن الحضارة العربية الإسلامية كانت تسبق الحضارة الغربية مباشرة. لقد اعتمد الأوروبيون على الحضارة العربية الإسلامية لتخرجهم من ظلمات عصورهم الوسطى عندما تتلمذوا في المعاهد العربية في صقلية والأندلس وغيرهما. ومن المعروف أيضاً أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الغربيين سبق بدايات عصر النهضة بكثير، إذ نقل عن العربية الكثيرون أمثال ابيلاز الذي تعلم العربية في بلاد الشام، وحرار الذي تعلمها في الأندلس^(١). ولكن ذلك لم يكن ذا تأثير كبير، لأن

الترجمة كانت إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة المتعلمين آنذاك. لقد تدنى الاهتمام باللغة اللاتينية منذ القرون الميلادية الأولى حتى القرن العاشر الميلادي، فلم تعد لغة خاصة بأي قوم، ولم يكن يتقنها إلا قلة من المتعلمين الذين احتاجوا إلى جهد واعٍ لإتقانها، لأن اللغة اللاتينية كانت بالنسبة لهم لغة أجنبية^(٢). وكان معظم المتعلمين من رجال الدين والارستقراطيين الذين وظفوا المعارف لخدمة أغراضهم، والمحافظة على مكتسباتهم. لقد كانت اللغة اللاتينية غريبة تماماً عن المواطن الأوربي العادي إذ كان العاملون في المدن وبخاصة الفنيين والحرفيين والتجار يستعملون اللغات الأوروبية المحلية بشكل تام تقريباً مما أقصاهم عن جل المعرفة المدونة في الماضي أو المعرفة المعاصرة التي ترعرعت في الحضارات المجاورة^(٣).

لقد ذاعت شهرة دانتي باعتباره من كبار الرجال المؤثرين والفعالين في قدح زناد عصر النهضة الأوروبية عندما كتب الكوميديا الإلهية. ولم تتل الكوميديا الإلهية تلك الشهرة الذائعة بسبب ما احتوته، أو لأن دانتي استلهم أبا العلاء المعري أو ابن عربي^(٤)، ولكن أهميتها الكبرى تكمن في اللغة التي كتبت بها. لقد كانت الكوميديا الإلهية أول عمل يكتب بلغة محلية أوروبية^(٥، ٦). كان ذلك العمل ثورة على اللغة اللاتينية التي احتكرتها رجال الدين والارستقراطيون الأوروبيون الذين لم يكن لديهم أي حافز لتطوير العلوم لأنهم ينعمون بكل مباحج الحياة المعروفة في عصرهم، ولم يكن المواطن الأوروبي العادي يشكل أي خطر عليهم، لأن البون بينه وبين المعرفة شاسع. إن كتابة الكوميديا الإلهية باللغة الإيطالية الوطنية التي يفهمها المواطن العادي هي الثورة الحقيقية التي أعلنها دانتي الذي عبر عن ذلك بقوله "إن هناك الكثيرين من ذوي العقول الممتازة الذين لم تتح لهم فرصة التعلم نتيجة الصدا الذي اعتري العادات الحسنة في العالم، ومن هؤلاء الأمراء والبارونات والفرسان وجمع غفير من عامة الناس، ويستوي في ذلك الرجال والنساء، وهم يستعملون اللغة الإيطالية المحلية ولا يعرفون من اللاتينية شيئاً يذكر"^(٧). لقد كانت تلك الثورة على اللغة اللاتينية النبراس الحقيقي الذي أثار شعلة العلم في أوروبا آنذاك. وقد حذا حذو دانتي الكثيرون من رواد النهضة الأوروبية الحديثة ومنهم

ميكافيللي^(٨)، وأعتقد أن شهرته بصفته فيلسوفاً سياسياً رائداً تؤول بالدرجة الأولى إلى استعماله اللغة الإيطالية الوطنية في كتاباته أيضاً، فقد وزع كتاب الأمير على شكل مخطوط، ونُسخَ عدة مرات قبل أن يطبع بعد وفاة ميكافيللي، ولم تمضِ عشرون عاماً حتى كان كتاب الأمير قد طبع للمرة العشرين، ومع ذلك يقول كريستيان غاوس في القرن العشرين في مقدمته لكتاب الأمير، إن ميكافيللي لم يهتم بتنقيف المواطنين بل اعتبرهم جامدين هامدين^(٩). إنني بكل تواضع أعتقد أن إعادة قراءة كتاب الأمير آخذين بعين الاعتبار اللغة التي كتب بها ستثبت أن ميكافيللي باستعماله اللغة الإيطالية اهتم بتنقيف المواطنين أضعاف بل مئات المرات أكثر مما استطاعه كبار المهتمين بشؤون التعليم وعلى رأسهم معاصره ايرازموس الذي دعا إلى تعليم اللاتينية للأطفال منذ نعومة أظفارهم حتى ينجح برنامج التعليمي، ويعلق جيمس باون على ذلك بأن دعوة ايرازموس هذه تنحصر دون أدنى شك في طبقة الأغنياء من المثقفين فقط^(١٠).

بعد بدايات عصر النهضة، ابتداءً تدوين العلوم المختلفة باللغات الأوروبية المحلية مثل الإيطالية والفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها. لقد كانت هذه الخطوة أكبر عامل مؤثر في انتشار المعرفة بين المواطنين العاديين في أوروبا، فحفزهم ذلك على سبر أغوار المعرفة وتطويرها حتى وصلوا إلى المكانة التي نشاهدها هذه الأيام، وعليه حققوا نبوءة اختصاصي العلوم الإنسانية نيبيرجا الذي أنشأ قواعد أول لغة أوروبية حديثة وبرر ذلك إلى إيزابيلا ملكة إسبانيا بتعليقه المشهور "اللغة هي الأداة المثلى (أو اليد الطولى) للامبراطورية Language is the perfect instrument"^(١١).

وإذا عدنا أدرجنا إلى بدايات الحضارة العربية الإسلامية نلاحظ التطور ذاته، إذ ورثت حضارتنا العربية الإسلامية الحضارة اليونانية بعد أن اكتمل نقل المعرفة إلى اللغة العربية فأخذت مكانتها المعروفة بين الحضارات الرائدة في التاريخ الإنساني. ولعل الكثيرين منا لا يقف عند الحضارة الرومانية وقفة طويلة لأنها لم تكن رائدة حقاً، وإنما كانت امتداداً ممسوخاً للحضارة اليونانية، وربما كان سبب ذلك غياب أي جهد كبير يشير إلى نقل المعرفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية. بل على العكس من ذلك ذوت اللغة

اليونانية نتيجة الفتح الروماني حتى لم يبق في الغرب، كما يقول برتراند راسل، من القادرين على مطالعة الكتب اليونانية إلا أفراد قلائل أصابوا من التعلم حظاً نادراً^(١٢).

إن ما حدث للحضارة اليونانية تكرر بصورة مماثلة بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، فاللغة الحضارية التي ذابت فيها كل العلوم آنذاك هي اللغة العربية فقد أتقنها أبناؤها العرب والمستعربون، وابلَى الطرفان فيها البلاء الحسن لتصبح حضارة إنسانية عالمية الانتشار بغض النظر عن الأصل العرقي والمعتقد الديني لمن شارك في صنعها. لقد كانت حضارة إسلامية مذهباً وعربية لساناً، تماماً كما إن الحضارة الغربية الحديثة مسيحية مذهباً وأوروبية اللغات لساناً، وما السبق الذي تستحوذه اللغة الانجليزية في هذه الحقبة التاريخية التي نعيشها إلا نتيجة للهيمنة الاستعمارية الأمريكية التي تعتبر امتداداً للهيمنة الاستعمارية الانجليزية. إن اضمحلال الحضارة العربية الإسلامية كان شبيهاً لما حدث للحضارة اليونانية أيضاً، إذ أغفل رومان الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهم الأتراك، أهمية العامل اللغوي في البناء الحضاري، فلا هم اتخذوا اللغة العربية وعاء لغوياً لهم ولا هم قاموا بنقل المحتوى المعرفي إلى اللغة التركية ليرثوا الحضارة العربية الإسلامية. لقد اعتمدوا على قوتهم العضلية تماماً كما فعل الرومان، وليس من قبيل المصادفة أن ظلت دولتهم قروناً من الظلام الحضاري، وفي هذا الصدد يذكر ستانفورد شو، في مجلديه عن الإمبراطورية العثمانية، أن الأتراك بلغوا مرتبة عالية في الشعر والنثر في بعض الأحيان في الوقت الذي أصاب فيه الوهن العلوم التقليدية والمؤسسات الثقافية العربية الإسلامية^(١٣).

إن من المعروف أن البدايات الحضارية الإغريقية نشأت في آسية الصغرى وصقلية وجنوب إيطاليا وكريت، وهي نقاط التماس مع حضارات العراق وبلاد الشام ومصر وقرطاجة^(١٤)، وهي حضارتنا العربية القديمة وليست السامية كما يصفها المستشرقون وتلامذتهم أسوة بشلوتزر النمساوي الذي أدخل هذا المصطلح الخاطئ عام 1781م^(١٥)، كما أن كبار فلاسفتهم أمثال طاليس وأفلاطون وغيرهما امضوا سنوات طويلة في بلادنا العربية^(١٦) مما يوحي بوجود فترة من الزمن تم فيها نقل المعرفة من اللغات العربية القديمة إلى اللغة اليونانية قبل أن تبدأ النهضة الإغريقية. فمن المؤكد أن المصريين

والبابليين والآشوريين والكنعانيين والاموريين والفنيقيين وغيرهم من الأمم العربية القديمة كانوا أسبق من الإغريق في كثير من العلوم التي تنسب دونماً تحقيق علمي رصين إلى اليونان، كالطب والفلك والهندسة والحساب وغيرها من العلوم. كما أن نقل المعرفة إلى اللغة الإغريقية جاء بعد أن استلهم اليونان الحروف الأبجدية العربية في نحت حروفهم الأبجدية التي تحتفظ بتسميتها العربية (ألفا بيتا) إلى يومنا هذا^(١٧، ١٨).

إن التشابه بين ظروف النهضة الإغريقية والنهضة العربية الإسلامية والنهضة الأوربية الحديثة كبير جداً. ففي الحالات الثلاث كان نقل المعرفة إلى لغة المواطنين العاديين أسبق من إنتاجها، واستمرت شعلة النهضة متقدة باستمرار بقاء لغة المعرفة قريبة مفهومة من قبل عامة الناس، وانطفأت الشعلة بابتعاد لغة المعرفة عن عامة الناس كما حدث عندما ورث الرومان والأتراك الحضارتين اليونانية والعربية الإسلامية.

إن انبعاث أية نهضة حضارية يبدأ بنقل المعرفة إلى لغة القوم الذين يصبون إلى التقدم كما أسلفنا، وأن تعلم اللغات الأجنبية في تلك الفترات مهم جداً في تحقيق ذلك حتى تعم الفائدة على جميع أبناء الأمة ويتمكنوا من المشاركة في إنتاج المعرفة وتطويرها. وكثيراً ما يحدث أثناء ذلك أن يبخل المؤهلون لتنفيذ عملية نقل المعرفة بجهودهم مختلفين أعماراً عديدة يخفون بها خوفهم على مكتسباتهم إذا انتشر العلم بين الناس كافة، ولا يكتفون بذلك بل يشنون حرباً شعراء على من يشق صفوفهم. واعتقد أن حملات التشهير المعروفة جيداً التي تعرض لها حنين بن اسحق^(١٩) قد تكون مثلاً على ذلك، ولأسباب نفسها كان امبروز باري أحد جراحي عصر النهضة عرضة للسخرية من زملائه عندما كتب باللغة الفرنسية ملخصه الوافي Fabrica الذي يصفه المتأخرون عنه بأنه إسهام كبير في تيسير علم الجراحة^(٢٠). أما ديرر رائد الفن الألماني في عصر النهضة فقد ساعد في تأسيس اللغة الألمانية الحديثة عندما أصر على استعمالها في كتاباته رغم نصيح أصدقائه بالعزوف عن ذلك وحثه على استعمال اللغة اللاتينية^(٢١).

إن ما يتعرض له معاصروننا الذين يدعون إلى تعريب العلوم ما هو إلا استمرار للأمثلة السابقة. ولعل عملية التعريب الجريئة التي نفذها إخواننا في الجزائر بعد اندحار الاستعمار الفرنسي توضح ما ذكرت بصورة مكبرة. فقد ارتفعت أصوات المتفرنسين هناك

دفاعاً عن التعليم بالفرنسية خوفاً من التذني المرتقب في المستوى التعليمية^(٢٢)، لقد استعمل المتفرنسون الجزائريون كل الحجج التي نسمعها في المشرق العربي لمنع التعريب، إلا أن الاختلاف بيننا وبين اخوتنا هناك كبير جداً. لقد استعمل المتفرنسون في الجزائر كل الحيل لمنع التعريب في جميع المراحل التعليمية بدا من الابتدائية بحجة الخشية على تدهور المستوى العلمي. وهنا يجدر بنا أن نسأل مثقفينا في المشرق العربي إذا أمكن أن نجد أحدا بينهم يؤيد التعليم بلغة أجنبية إذا بادرننا بالدعوة إلى تعجيم التعليم المدرسي؟ يقيني أن الجميع سوف يستتكرون ذلك بقوة لنفس الأسباب التي يلتصونها لبقاء التعليم باللغة الأجنبية في المرحلة الجامعية! إلا أن إخواننا في الجزائر بحزم المؤمنين بتوفير العلم للجميع تخطوا حاجز الخوف النفسي وأقدموا على تعريب جميع مراحل التعليم.

إن ظروف النهضة العربية الحديثة معروفة لكم يجدا منذ بداياتها أثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام. وقد اندحرت فرنسا نتيجة لصراعها مع بريطانيا، وعليه تأخر الغزو الاستعماري قرناً من الزمان حتى اتفقت القوتان الاستعماريتان على تقسيم المشرق العربي بينهما فيما يعرف بمعاهدة سايكس بيكو الشهيرة. لقد أعطي الصراع بين القوتين الاستعماريتين العنصريتين متنافساً لمصر محمد علي بحكمة الذاتى المستقل لىبني مصر قوة عربية مؤثرة فأرسل بعثاته إلى فرنسا. ولما عاد المبعوثون أنشؤوا المدارس العالية واعتمدوا اللغة العربية وسيلتهم في نقل المعرفة، فتقدمت مصر بخطى واثقة نحو التحديث، فأسسوا المصانع وبنوا جيشاً مهاباً وأسطولاً قوياً في فترة زمنية قصيرة، فكانت مصر آنذاك متقدمة على اليابان وربما على ألمانيا. أرعبت خطوات مصر الجريئة هذه المتربصين بها وتأمروا عليها مع الباب العالي، فدحروا محمد علي وأغرقوا ورثته بالديون، مما أدى الى احتلال مصر والسيطرة على تقدمها العلمي بالدرجة الأولى، فكان من أهم انجازاتهم إقصاء اللغة العربية عن احتواء العلوم الحديثة التي ابتدأ الطهطاوي وتلامذته في تحقيقها^(٢٣)، وحولوا مصر إلى مزرعة للقطن يوفرونه لمصانعهم .

لقد انطلق المثقفون المصريون في تعريب العلوم أيام محمد علي باستقلالية تامة، فقد نقلوا إلى لغتهم العربية ما يمكنهم من تحقيق الاستقلال الاقتصادي والعسكري وتوفير

المستوى الصحي اللائق بالعصر الذي يعيشون، فترجموا العلوم المدنية والعسكرية ودرسوا الطب باللغة العربية أيضاً. لقد نقلوا المعرفة إلى العربية حسب احتياجاتهم تماماً كما فعل أجدادهم العرب المسلمون عندما نقلوا العلوم اليونانية إلى اللغة العربية توكيلاً للفائدة التي يبتغون، إذ صدروا في ترجماتهم باستقلالية تامة وليس كما يشير عليهم الآخرون، لأنهم كانوا في مركز قوي يستلهمون حاجاتهم الحياتية، فترجموا الفلك والهندسة والحساب والطب والفلسفة، وأغفلوا ترجمة الآداب اليونانية لأنهم كما اعتقد لم يشعروا بأنها تنهمهم بدرجة تماثل أهمية العلوم الأخرى. لقد صدروا في نقل المعرفة عن حسهم الذاتي. إنني لا أستطيع أن أزعم أن أشعار هوميروس والإلياذة والأوديسا وغيرها من بدائع الآداب اليونانية ليست قيمة، ولكنني لم أعتقد أن العرب المسلمين بما وصلوا إليه من تقدم حضاري يشهد له المنصفون العارفون من جميع الأمم، لا أعتقد أنهم لم يطلعوا على الآداب اليونانية أو أن تذوقها صعب على سليقتهم. لذا فإنني أعتقد أن إدوارد جيبون في كتابه "اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية" يتعسف كثيراً إذ يقول "إن المسلمين حرموا أنفسهم من الفائدة الكبيرة المتوخاة من التفاعل المؤلف مع اليونان وروما، الذي يؤدي إلى معرفة العصور القديمة، ونقاء الذوق، وحرية الفكر"؛ وعندما يقول أيضاً "ولربما أثارت الأساطير الهومرية اشمئزاز أولئك (العرب) المتعصبين القساة". إلا أن جيبون قد يكون مصيباً عندما يقول "وقد عزف العرب عن دراسة أية لغة أجنبية لاعتزازهم الكبير بفصاحة لغتهم القومية" ^(٢٤). إن عدم ترجمة الآداب اليونانية إلى اللغة العربية يمكن أن يفسر بأن العرب المسلمين، بالإضافة إلى ما بلغته آدابهم من سمو، لم يشعروا أن هناك فائدة كبيرة مرجوة من دراسة الآداب اليونانية كما يزعم جيبون، لأن العرب المسلمين كانوا يصدرن في الترجمة عن أولويات مدروسة محسوبة ينتفعون بها وفق حاجاتهم الحياتية. ولذلك فإن التماس العذر لهم لأنهم لم ينقلوا الآداب اليونانية أو محاولة إثبات أنهم ترجموا شيئاً منها ^(٢٥) أمر لا يستحق الكثير من الجهد أو البحث وقد يوقعنا في كثير من التعسف. أنني لا أستطيع أيضاً أن أزعم أننا لم نعد من نقل الآداب الأوروبية الحديث والمعاصرة إلى لغتنا العربية، فقد عرفنا من خلال ذلك شكسبير وفكتور هوجو وتولستوي واليوت وكثيرين غيرهم، ونقلنا المسرح والكوميديا والتراجيديا والمنولوج والديالوج، وطورنا الشعر العربي فحررناه من قافيته الموسيقية الساحرة حتى لم نعد

نستطيع أن نفرق بين النثر والشعر. لقد أفدنا من ذلك الكثير الكثير. ولكننا بقدر ما استحدثنا في لغتنا الأدبية من عبارات جديدة وتشبيهات عصرية خلابة بقدر ما أبعدنا لغتنا عن العلوم في شتى مناحيها، حتى أصبحت كلمات المونولوجيست والسناريست والكوافير والمتر والشيف وقاموس كبير من هذه الكلمات مألوفة لدينا، بينما تثير فينا السخرية كلمات مثل الانتان والموات والخمج والمبضع والكاحل والزند والكعبرة وغيرها. ملخص القول إن أسلافنا العرب المسلمين صدروا في نقل المعرفة إلى اللغة العربية عن أولوياتهم المدروسة، بينما نصدر نحن ويا للأسف عن أولويات الآخرين المدروسة، وشتان بين الحالتين.

لقد كانت انطلاقة آبائنا وأجدادنا إلى التعريب في بداية هذا القرن انطلاقة قومية، إذ كانت تتنازع الأمة العربية قوى خارجية تحاول تفتيتها، ليس إلى كيانات سياسية هزيلة فحسب، بل إلى أصول عرقية لا يجمعها أي هدف مشترك، أن الآباء والأجداد بإيمانهم القوي تصدوا لكل تلك المحاولات الخارجية حتى اندحرت كل الدعاوي الدخيلة والمدسوسة، وتحققت آخر الانتصارات على أيدي إخواننا في مصر الذين دحروا الدعوة الأخيرة إلى الفرعونية في مهدها معتزين بعروبيتهم التي لا تشوبها شائبة^(٢٦). وها هي مصر تستعيد مكانتها كاملة غير منقوصة في العالم العربي بعد ما يزيد على العقد من الزمن عندما انتصر أبناء مصر العربية على أنفسهم. لقد اكتمل انتصارنا القومي إلى أكد عروبتنا التي لن يزعزها المتربصون بها. إلا أن ذلك أدى إلى تراخ غير مقصود في غالبية الأحيان في عملية التعريب، واعتقد أن ذلك يعود إلى عدم وعينا الكامل بعملية التعريب وتأثيرها على عملية التحديث الذي تتطلع إليه الأمة العربية. لقد ازداد عدد المتعلمين زيادة كبيرة في العالم العربي ولم تعد الفرصة متاحة للكثيرين منهم إلى إكمال دراستهم في دول أوروبا أو أمريكا، مما سيؤدي إلى عدم اتقانهم اللغات الأجنبية اتقاناً تاماً، أضف إلى ذلك الغالبية العظمى من خريجي الجامعات في العالم العربية يتوقفون عن الدراسة بعد تخرجهم، والقسم الأكبر منهم لا يتابعون تخصصهم بعد ذلك مما سيؤدي أيضاً إلى ضعفهم المرتقب باللغة الأجنبية، كما أن هناك مجموعات كبيرة من المتخصصين تخصصاً عالياً من الذين أتموا دراستهم بلغات أجنبية غير تلك المعتمدة

في بلادهم مما يضطرهم عندما يعودون لخدمتها إلى دراسة لغة أجنبية ثانية من جديد وبذلك يحرمون بلادهم من المعرفة التي نهلوا منها أو التي تستجد في البلاد التي تعلموا فيها. كما أن طلبة المعاهد العليا وكليات المجتمع التي أخذت في الانتشار في العقدين الأخيرين لا يتمتعون بفرصة الاطلاع عليها أو الدراسة في الكتب العلمية المتقدمة في مجال تخصصهم لعدم توفرها باللغة العربية. ويجب أن لا ننسى خريجي الثانوية العامة الذين لم يحظوا بفرصة التعليم العالي وفيهم الكثيرون من ذوي العقول الممتازة الذين ذكرهم دانتي.

إن من أهم الأسباب التي يعتمد عليها المنادون باستمرار الاعتماد على اللغة الأجنبية في التعليم الجامعي هو التسارع الهائل الذي نشاهده اليوم في تطور المعرفة وتجدها، ويزعمون أننا إذا عرنا العلوم فإن ذلك سحرمانا من متابعة المستجد منه مما سيؤدي إلى تخلفنا عن ركب الحضارة المعاصرة. إن هذا السبب بعينه في رأيي هو السبب الأهم الذي يجب أن يحفزنا إلى الإسراع في عملية التعريب إذا رغينا في متابعة التقدم المعرفي. فمئذ ثلاثة أعوام ونيف قمت بصحبة أحد الأصدقاء المؤمنين بالتعريب بزيارة رئيس مجمعنا نناقشه في أمور تعريب العلوم الصحية، نستشير بأراءه القيمة المعروفة لديكم، وبحث أجدي السبل لدفع عملية التعريب إلى الأمام، فحدثنا عن تجربة المجمع في ترجمة العلوم الطبية في كلية العلوم في الجامعة الأردنية وقدم لنا عدداً من الكتب التي ترجمت. بعد عودتي إلى البيت أخذت في تصفح أحد الكتب في علم الأجنة فوجدتني بعد ساعات قلائل، وقد جاوزت منتصف الكتاب وأدركت بعد ذلك أنني أحتاج وأنا أتقن اللغة الانجليزية إلى ضعف إن لم يكن أضعاف ذلك الوقت لو أن لغة المادة التي قرأت كانت انجليزية. وتخيلت لو أن كتب الطب متوافرة باللغة العربية لتمكنت من قراءة كتاب جديد كل أسبوع، أو كل شهر. إنني أدركت ما الذي رمى إليه جيمس باون عندما ذكر أن المثقفين الأوروبيين احتاجوا إلى جهد واع عندما كانوا يستعملون اللغة اللاتينية، وكيف أن دانتي وميكافيللي وغيرهما فجروا عصر النهضة باستعمالهم اللغات الأوروبية الوطنية، ولماذا تنفق الدول المتقدمة حضارياً الأموال الطائلة لتتقل المعرفة إلى

لغاتهما، إنها لا تفعل ذلك من قبيل التعصب القومي. لذلك أعتقد أن تعريب العلوم سيمكن حتى المتخصصين منا متابعة العلوم المستجدة بشكل أوسع وأيسر.

لقد دفعني ذلك إلى القيام بمحاولة تعريب أحد الكتب الطبية المتخصصة، ولم تكن المحاولة سهلة أبداً، ولكنني أدركت أن جهلي باللغة العربية لم يعادله دراسة كبيرة باللغة الانجليزية، إلا أنني بالمتابعة استطعت أن أتدرك شيئاً من القدرة على استعمال اللغة العربية وهالني أن درايتي باللغة الانجليزية كانت متواضعة وأخذت تتحسن تحسناً فاجأني وقد كنت معتداً بإتقانها. ولكن المفاجئة الحقيقية لم تكن هذه. لقد تعرضت أثناء الترجمة إلى المصطلحات العربية للمرة الأولى ولا أستطيع أن أنكر أن كثيراً منها كان غريباً جداً إلا أنني وجدت عدداً كبيراً منها يوضح المعنى في ذهني بصورة دقيقة لم أكن أتوقعها. بعد المضي في الترجمة زالت الغرابة وازدادت الألفة فوجدت أن مشكلة التعريب ليست المصطلحات، فلمعظمها مقابل باللغة العربية ومعظم المجامع العربية تقر تعريب بعض المصطلحات، واعتقد أننا في هذه الفترة والتعريب لا يزال يمشي الهوينى بحاجة إلى استعمال المصطلحين العربي والمعرب حتى نألف المصطلح الأول أو نجد مصطلحاً أنسب، ولا أعتقد أن تعدد المصطلحات للمعنى الواحد فيه ضرر كبير يدعو إلى تأخير عملية التعريب، فنحن نعلم أن كثيراً من المصطلحات في اللغات الأجنبية لها أكثر من مترادف، ولا سيما المصطلحات الجديدة إذ يستعمل كل مركز علمي مصطلحاً خاصاً به لمدة من الزمن حتى يتم الاتفاق على مصطلح واحد.

إن اللغة العلمية ليست المصطلحات فحسب بل إنها أيضاً اللغة الوسيطة التي تربط وتفسر المصطلحات والرموز وكل العمليات العلمية أياً كانت. إن هذه اللغة الوسيطة التي يصفها عبدالله العروي باللسان المقوعد^(٢٧) هي المحور الأساسي الذي تقوم عليه اللغة العلمية لتصبح سلسلة قريبة إلى الإفهام، وما الدور الذي تلعبه اللغة الأجنبية إلا دور الوساطة بين المصطلحات. إن هذه الوساطة أعجمية تماماً في المراجع الأجنبية، وفي أغلب الأحيان تكون ثقيلة بعيدة عن الإفهام لأن الغالبية من المتعلمين لا يتقنونها إتقاناً تاماً، فهم يعودون إلى المعجم بحثاً عن المعنى أو يهملون ذلك فيكون فهمهم لما يقرؤون منقوصاً أو خاطئاً، أو يعيدون قراءة الجملة أو الفقرة أو البحث عدة مرات،

يمضون في ذلك ساعات طويلاً في دراسة تحتاج إلى جزء قليل من ذلك الوقت لو كانت اللغة الوسيطة قريبة إلى الإفهام. ولا أعتقد أن أي لغة أجنبية ومهما كانت درجة إتقاننا لها ستكون أسهل علينا من لغتنا الأم. إن درجة إتقاننا للغة الأجنبية تتبدى لنا بصورة واضحة في محاضراتنا ونقاشاتنا العلمية. وقد دأبت في الآونة الأخيرة أن أتابع محاضرات الآخرين، ولا أزعج أنني خير منهم، فأيقنت مدى تدني إتقان المتخصصين منهم للغة الأجنبية. كلنا يعلم ذلك عن وعي أو غير وعي، لأن غالبيتنا في تدريسنا الجامعي لا يستعمل اللغة الأجنبية، ولكننا نستعمل هجيناً لغوياً لا هو بالعربي ولا هو بالأجنبي، وحتى الذين يتقنون اللغة الأجنبية إتقاناً جيداً يلجؤون إلى تفسير ما يعتقدونه صعباً باللغة العربية. إن الاهتمام يجب أن ينصب على اللغة الوسيطة بنفس الأهمية التي نعيرها إلى المصطلحات، وأعتقد أن مقاومة الكثيرين للتعريب ما هي إلا لتدني القدرة على استعمال لغة عربية وسيطة رصينة مع أن اللوم في معظم الأحيان ينصب على المصطلحات والرموز. وقد أكون متطرفاً عندما أقول: إذا كان هدفنا الأول من التعريب هو جعل المعرفة في متناول عامة الناس بلغة ميسرة قريبة إلى الإفهام، وهذا في رأيي السبب الأهم، فإن اللغة الوسيطة أهم من المصطلحات بكثير حتى لو اقتضى منا الأمر استعمال المصطلحات أو الرموز الأجنبية بعينها. لقد أدرك عمالقة الحضارة العربية الإسلامية ذلك واستعملوا المصطلحات اليونانية دون حرج أو شعور بأن في ذلك ما ينتقص من هويتهم.

إن إتقان اللغة الوسيطة يحتاج إلى درية ودراية، وأعتقد أن أفضل وسيلة في الوقت الحاضر هي الترجمة، لأن كتابة اللغة العلمية تتوخى الدقة والوضوح والإيجاز في التعبير، وما من شك أن الكتاب الأجانب وما يتيسر لهم من محررين لغويين متخصصين بلغوا في ذلك شأنًا عظيمًا يجدر بنا أن نتطلع إليه حتى نتكون لدينا لغة علمية عربية مماثلة. ومن الصعب أن يدرك أي منا ذلك حتى يقوم بترجمة بعض النصوص ترجمة دقيقة واضحة موجزة. إن ذلك يحتاج إلى جهد دؤوب، ولذلك أنصح المؤمنين بالتعريب من الزملاء الأطباء أن يحاولوا ذلك بأن يقوموا بترجمة كتب صغيرة

الحجم في حقل اختصاصهم لأن في ذلك نفعاً كبيراً لهم شخصياً ولزملائهم الأطباء العامين والمتدربين والاختصاصيين أيضاً.

إن التعريب لا يعني العزلة بل على العكس من ذلك سيؤدي إلى نشر المعرفة العلمية بين المواطنين جميعاً وقد يقول قائل وما حاجة المواطن العادي إلى المعرفة المتقدمة، أجل انه ليس بحاجة إلى تفاصيلها، ولكن هناك عدداً قليلاً من الهواة المتخصصين الذين أضافوا للعلم الشيء الكثير ولم يكونوا على حظ كبير من التعليم الأكاديمي، إنهم لا شك قلة قليلة جداً في عصرنا الراهن، ولكن الغالبية من المواطنين العاديين يتلهفون إلى الاستزادة من المعرفة العلمية. وإن استهداف هؤلاء أثناء الكتابة أمر عسير جداً إذ لا يكفي أن يمتلك الكاتب فهماً دقيقاً ومفصلاً لمادته العلمية ولكنه يجب أن يكون ملماً بأساليب الكتابة العلمية إماماً كبيراً حتى تكون كتابته سهلة مفهومة من قبل الإنسان العادي، وكثيراً ما يكون هذا الإنسان العادي على درجة كبيرة من الثقافة، إلا أنه لا ينتمي إلى ذلك التخصص وهو ما يدعى (layman) بالانجليزية. إن هذا لن يتأتى إلا إذا كانت لغتنا العلمية عربية في جميع مستوياتها المدرسية والجامعية والمتخصصة.

إن صلاحية اللغة العربية لاستيعاب العلوم كلها أصبح أمراً بديهياً وإن بقيت قلة ممن يشكون في ذلك. وأحسن رد عليهم أجده فيما قاله توماس مور عن اللغة الانجليزية في بدايات عصر النهضة إذ يقول "إن اللغة الانجليزية غنية إلى درجة تسمح بالتعبير عن أفكارنا في أي موضوع يتحدث عنه رجل إلى آخر" ^(٢٨). لقد قال مور هذا القول عندما كانت اللغة الانجليزية في مهدها فكيف نشكك نحن في قدرات اللغة العربية وقد احتوت قبل ذلك القول بزمان كبير العلوم كلها، وهي الآن أقوى مما كانت عليه في الماضي، وتدعو أبناءها لاستعمالها عوناً لهم في أيامهم المقبلة.

الأستاذ الدكتور رئيس المجمع، السادة الأساتذة الأجلاء، انه لشرف عظيم أن يكرمني رئيس مجمع اللغة العربية الأردني بأن أتحدث عن موضوع التعريب إلى أساتذة أجلاء لهم باع طويل وخبرة فياضة في تعريب العلوم نهلنا منها ولا نزال. لقد أخذتني النشوة عندما شرفني رئيس المجمع بمنحي هذه الفرصة الكريمة، وأحسست بعظم

المسؤولية الملقاة على عاتقي بعد أن عدت إلى نفسي، وودت لو أن شجاعتي وصلت إلى درجة تسمح لي بالاعتذار، ومع علمي بأن الشجاعة مضرّة في غير موضعها، وأن للجبين أحياناً فوائد ليست في الحسبان، إذ خانتني شجاعتي مراراً وأنقذني جبني، فأكملت دراستي وتخصصي وسميت ذلك توفياً، وإنني آمل أن أكون قد وفقت في طرح جوانب مفيدة حول التعريب تزيد من إيماننا به لأنني أعتقد أن الإيمان عندما يتحول إلى عمل تهون بسببه جميع المعوقات.

المراجع

- (١) ول ديورنت، المترجمون، في "قصة الحضارة"، الجزء السادس من المجلد الرابع، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، مجلد 17، ص 15-22.
- (٢) James Bowen: Growth of the vernacular and decline of latin in A History of Western Education. Vol. 2, Civilization of Europe. Methuen 9 CO. Ltd. London, 1975, pp 166-172.
- (٣) المرجع نفسه.
- (٤) مرجع رقم 1، دانتى، ص 302-345.
- (٥) المرجع نفسه.
- (٦) مرجع رقم 2، Dante, education and life in Duecento Florence pp 178-182
- (٧) Dorothy L. Sayers. Introduction, in Dante: The divine Comedy. 1 Hell. Penguin Books, 1987, pp 49.
- (٨) J. R. Hale, Secular Learning: Educational Reform in Renaissance Europe, 1480-1520, Fontana History of Europe, 1977, pp 283-297.
- (٩) كريستيان غاوس، مقدمة كتاب الأمير، في "الأمير" تعريب خيرى حماد، تعقيب فاروق سعد، طبعة 12، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982، ص 17047.
- (١٠) Erasmus of Rotterdam, pp 330-34. مرجع رقم 2.
- (١١) مرجع رقم 8.
- (١٢) برتراند رسل، الامبراطورية الرومانية والثقافة، في تاريخ الفلسفة الغربية" الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، مراجعة أحمد أمين، لجنة التأليف والنشر، الطبعة الثالثة، 1978، ص 399-416.

(١٣) Stanford Shaw, Ottoman society, administration and culture in the age of decentralization and traditionalistic reform, in History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol 1. Cambridge University press, Cambridge, 1976, pp 208-298.

(١٤) ول ديورانت، البيئة المحيطة ببلاد اليونان، في "قصة الحضارة"، الجزء الأول من المجلد الثاني، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، ص 128-134.

(١٥) أحمد سوسة، السامية والساميون، في "تاريخ حضارة وادي الرافدين"، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، ص 227-230.

(١٦) يوسف كرم، طاليس، ص 12-14، أفلاطون "حياته ومصنفاته، ص 62-68. في "تاريخ الفلسفة اليوناني"، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

(١٧) أرنولد توينبي، المدينة الهيلينية، في "تاريخ البشرية" جزء 1، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص 517-228.

(١٨) مرجع رقم 14، الكتابة والقراءة، ص 371-376.

(١٩) ماهر عبدالقادر محمد، "حنين بن اسحق: العصر الذهبي للترجمة"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص 51-59.

(٢٠) John Davis, Our surgical heritage, in Clinical Surgery Davis J.H., Durker W.R. Gann D.S., et al., Editors, The C.V. Mosby Co., St Louis, Washington D. C., Toronto, 1987, pp 3-29.

(٢١) مرجع رقم 8.

(٢٢) هانية الحسن، مشكلات التعريب في الجزائر، الفكر العربي، العددان 4-5، 1978، ص 399-402.

(٢٣) محمد عمارة، "رفاعة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت 1984.

(٢٤) Edward Gibbon, Chapter LII, Larning of the Arabs, in The Decline 9 Fall of the Roman Empire. The Modern Library, New York, no date, pp 233-234.

- (٢٥) فهمي جدعان، هوميروس عند العرب، في "نظرية التراث"، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1985، ص177-218.
- (٢٦) مجموعة من الباحثين، عروبة مصر بعد عبدالناصر، الفكر العربي، العددان 4-5، ص185-370.
- (٢٧) عبدالله العروي، التعريب، في "ثقافتنا في ضوء التاريخ"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص207-229.
- (٢٨) مرجع رقم 8.